منالًا من أن يبلغه طمع الطامعين وطموح الطامحين، والشيء الذي أستطيع أن أقرره وأنا صادق عند نفسي سواء أصدَّقني القارئ أم لم يصدقني، هو أنِّي تتبعت حياة هذه الأسرة من قُرب وفي كثير من العناية والدقة، فرأيت كثيرًا من الأحداث التي عرضت لها والخطوب التي ألمت بها خليقًا أن تكتب فيه القصص وتُنشأ فيه الكتب وتُؤلف فيه الأسفار الطوال، وأكبر الظن أنَّ هذا ليس مقصورًا على هذه الأسرة، وإنَّما هو شأن كثير من الأسر المصرية في هذا العصر الخطير من حياة مصر، حين أخذ القرن الماضي ينتهي وأخذ القرن الحاضر يبتدئ، وأخذت الحياة المصرية تنتقل من طورها القديم إلى طورها الجديد في عُنف هُنا وفي رفق هُناك.

في هذا الطور من أطوار الحياة المصرية اختلفت على أسر المدن والأقاليم خطوب، لم يكن يحفل بها أحد، ولا يلتفت إليها إنسان، وهي مع ذلك قد خلقت مصر خلقًا جديدًا وبدَّلتها من خمولها القديم نباهة، ومن جمودها القديم نشاطًا، وما من شك في أنَّ الذي أقصُّه من أنباء هذه الأسرة — أسرة خالد — يمكن أن يقص مثله من أنباء أسر أخرى كانت تتصل بها صلة الجوار أو صلة المشاركة في العمل وفيما كان العمل يترك في حياتها من آثار، وأنا مع ذلك لا أقص من أنباء هذه الأسرة إلا أقلها وأيسرها؛ فقد كثر أبناؤها وبناتها، واختلفت بهم وبهن نوب الأيام، وذهب كل واحد منهم مذهبه في الحياة، كما دفعت كل واحدة منهن إلى طريقها التي رسمت لها من قبل؛ لم ترسمها لنفسها ولم يرسمها لها أبوها، وإنما رسمها لها القضاء الذي ليس للإنسان عليه سلطان.

وحسبي أن أُسجِّل أنَّ الأعوام لم تكد تتقدم بهذه الأسرة في موطنها الجديد حتى كان أبناؤها قد شبوا واستنفدوا ما كان يُمكن أن تمنحه الأقاليم لشبابها من العلم والمعرفة في ذلك الوقت، فلم يكن بد من أن يرحلوا إلى القاهرة حيث يُطلب العلم ويُلتمس الرقي، وقد فعلوا. وهذه كلمة يسيرة تُقال في لحظة قصيرة، وتُكتب في حيِّز ضيق جدًّا من الورق، ولكن التفكير فيها ينحل إلى آلام لا تُحصى، ومتاعب لا تُعد، وجهود لا يكاد يتصورها العقل، وعواطف منها ما يسر ويُرضي، ومنها ما يسوء ويُؤذي، فلم يكن انتقال الأبناء من الأقاليم البعيدة إلى القاهرة في آخر القرن الماضي وأول هذا القرن من السهولة واليسر كما هو في هذه الأيام، وإنما كان شيئًا عسيرًا كل العسر، معقدًا أعظم التعقيد، كان يحتاج إلى كثير من النفقات لم يكن راتب خالد يستطيع أن ينهض به، وكان يحتاج إلى كثير من الجهد في إسكان هؤلاء الشباب في المنازل التي تُلائمهم، وتمكنهم من العيش الذي يستطيعون أن يطمئنوا إليه، وحمايتهم من الخطر الذي